حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد أكتوبر – ديسمبر ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

الشفاهية والكتابية وأثرها في اختيار الشاهد الشعري

منى عيسى هاشم*
نصيرة أحمد الشمري**

جامعة بغداد – كلية الآداب– قسم اللغة العربية
Woh82@gmail.com

المستخلص

يشكل الشاهد الشعري جزءاً لا يستهان به من المصنفات الأدبية القديمة، فقد استعان المؤلفون به لإغراض مختلفة، فهم يتوسلون به لتوضيح ما يسوقون به من أخبار عن الشعراء أو ليدعموا آرائهم النقدية واستأثر الشاهد الشعري بأهمية كبيرة لسرعة حفظه وبقائه في الذاكرة.

وهذه الدراسة تهدف إلى معرفة المعايير التي دعت الناقد القديم إلى اختيار شاهده الشعري، ومن ثم تسليط الضوء على الفترة الانتقالية بين (شفاهية القول) المرتبطة بالمجتمع القبلي وبين (الكتابية) التي شاعت مع تغير الأوضاع وتطور الحضارة وتأثيرها على اختيار الشاهد الشعري.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس ٢٠٢١.

معايير اختيار الشاهد

تداولت كتب النحو واللغة نصاً منسوباً الى (ابي نصر الفارابي)[١] يحدد فيه المعايير التي اعتمدها علماء العربية في اختيار العرب الموثوق بعربيتهم وهم الذين يعتمد عليهم في مسألة الاستشهاد وفيه:

(كانت قريش اجود العرب انتقاء للأفصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق، واحسنها مسموعاً، وابينها ابانة عما في النفس والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي، وعنهم اخذ اللسان العربي، من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم واسد، فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب، وفي الاعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم)[٢] وهذا النص يشير الى عدم الوثوق بعربية من سكن الحواضر ومن سكن اطراف الجزيرة المتاخمة ليس العجم لان اختلاطهم بالأعاجم سبب فساد لغتهم.

وبالجملة فانه ((لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري فمن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم، فان لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام فانهم كانوا مجاورين لأهل مصر القبط... ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حيث ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت ألسنتهم))[٣] هذا يعني أن العرب حصرت الفصاحة في وسط الجزيرة بالبادية وجعلت أطرافها وحواضرها أمكنة لفساد الألسنة أي أنّ المعيار الأول لاختيار الشواهد هو (المعيار المكاني) فالقبائل التي اعتمدت لغاتها للرواية كانت في وسط الجزيرة بعيدة عن الاطراف، لتكون بعيدة عن الاختلاط الذي ترتب عليه الفساد اللغوي.

ثم يذكر علماء العربية معياراً آخر للفصاحة ولصحة الاستشهاد وهو (المعيار الزماني) فلم يُحتج بشاعر من شعراء منتصف القرن الثاني فهم محدثون، لا يستشهد بهم أينما حلّوا وحيثما ارتحلوا. بل أنّهم جعلوا نهاية عصر الاحتجاج الى منتصف القرن الثاني، حيث قيل ((خُتم الشعراء بإبن هرمة وهو آخر الحجج))[٤] لقد كانت الأصول التي وضعها علماء العربية في تصنيف من يوثق بكلامه، بالغة الصرامة لأنهم قيدّوا أنفسهم بحدود زمانية لا يتعدونها، فأصبح علماء العربية من اللاحقين بين نارين: نار اعتماد الشعراء بعد عصور الاحتجاج من جهة ونار الرهبة من خرق ما أجمعَ عليه السلف من جهة ثانية، فكان اللجوء للمحدثين للتمثيل والايضاح أو للتلميح والتحلية أو للاستشهاد بهم بصورة غير مباشرة، وسيلة من وسائل النجاة وباباً من أبواب التخفف من ضغط التراث الهائل.

نقل البغدادي عن أبي جعفر الأندلسي قوله:

((علوم الأدب ستة: اللغة والصرف والنحو، والمعاني والبيان والبديع، والثلاثة الأول لا يستشهد عليها إلّا بكلام العرب، دون الثلاثة الأخيرة فإنّها يستشهد فيها بكلام غيرهم من المولدين، لأنّها راجحة الى المعاني ولا فرق في ذلك (أي في المعاني) بين العرب وغيرهم إذ هو أمرٌ راجح الى العقل، ولذلك قُبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيب، وهلم جرا)).[٥]

وهذا يعني أنّ هناك نوعين من الاستشهاد: إستشهاد لغوي وإستشهاد في المعاني ومجاله المعاني العقلية، أو الفكر العامة أو الكلية التي تخطر للعقل أي التي لا يُقصد بها معنى لفظ أو تركيب مثلاً. وهذه المعاني هي التي نسبها (الأندلسي) في النص السابق الى

العقل والى علوم البلاغة. وهو قد يسمى استشهاداً في مجال الفكرة أو المعنى العقلي أو البلاغي أو الشعري.(٦)

وهذا النوع موجود في كتب المعاني والأدب والبلاغة وتبعاً لمعيار الزمن فقد قسموا الشعراء الى طبقات ((جاهلي قديم، ومخضرم وهو الذي أدرك الجاهلية والاسلام، واسلامي ومحدث، ثم صار المحدثون طبقات: أولى وثانية على التدريج))(٧) وعدّوا بشاراً (ت ١٦٧هـ) أول الشعراء المحدثين ممن لا يحتج بشعرهم.

وقد رأى بعض العلماء أنّ توافر الثقة بالشاعر، يطمئن النفس بالاحتجاج بشعره حتى لو تأخر زمنه.(٨) وقد ناقش ابن قتيبه فكرة المعيار الزماني للشاهد فقال: ((ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصَ به قوماً دون قومٍ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عبادهِ في كلِ دهرٍ، وجعلَ كلّ قديم حديثاً في عصرهِ .. فقد كان جرير والفرزدق والاخطل وأمثالُهم يُعَدُّون مُحدِثين. وكان أبو عمر بن العلاء يقول: لقد كَثُر هذا المُحدَثُ وحَسُنَ حتىّ لقد هممتُ بروايته))(٩) وهو في موضع آخر يلخص المعيار النقدي الذي اعتمده فيقول:

((فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدّم قائله، ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلّا أنّه قيل في زمانه، أو أنّه رأى قائله))(١٠) ويكمن السبب في تفضيل النحاة واللغويين الشواهد الشعرية القديمة الى كونها امتازت ببداوتها، فألصقوا بها السليقة والطبع وذلك للحفاظ على أصالة اللغة العربية وفصاحتها، ((فالشاعر الأصيل هو الذي تجيء لغته في شعره سليقة وطبعاً وهو بذلك قريب من البدوي الذي تتدفق اللغة على لسانه بلا تكلّف أو تعمُّل، أما ذلك الذي يجوّد شعره ويصيغه فإنّ دافعهُ لذلك من وجهة نظرهم هو ضعف سليقته وبعدهِ على الفطرة السليمة)).(١١)

وتبعاً لذلك يمكن القول أن المعيار الثالث للاستشهاد بالشعر كان (الطبع والصنعة) فركز اللغويون على الشعر المطبوع وهو ما كان وليد جيشان في النفس وحركة في القريحة، دون المصنوع أو المتكلف وهو الذي يقوّم شعره بالثقاف وينقحه بطول التفتيش ويعيد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة.(١٢)

((والقدامى أقرب الى الطبع أما المحدثون فحظهم من الطبع متفاوت، فبعضهم يقوى لديه ويحكمه في الابداع فيجيء كلامه أقرب الى طرائق الاعراب، وبعضهم يحب الإغراب وإظهار الاقتدار لأنه يدل على كمال البراعة، ولذلك يلجأ الى الفكر لا الى الطبع فيحمله على الاكثار من البديع)).(١٣)

لقد عُدّ الشعر المطبوع وأنْ افتقدَ للجودة عاملاً من عوامل القبول والثقة ((لأنَّهم بحثوا عن الأصالة في اللغة، والفطرة في منتجيها، فافترضوا وجودها مع القدم بالنسبة للزمن، ومع البداوة يتحقق القدم))(١٤). إنّ تغليب الشواهد القديمة باعتبارها دليلاً قاطعاً على الصحة والفصاحة، وقد يُفقد المؤلّف قيمته وتمثيله للواقع، لأنّ الشواهد القديمة كانت في زمانها تعكس الاستعمال اللغوي الحي. كما أنّ المعايير التي اعتمدها الرواة واللغويين لا تشجع على الابداع، وهي تمثل إجحافاً بحق ابداع الشعراء، كما أنّها تقلص من فاعلية اللغة على النمو والارتقاء، لأنّ رقي العمل الفني تكمن في مستوى ابداعه. وهذا ما سعى اليه الشعراء المحدثون الذين حاولوا أن يرتقوا بلغة الابداع، ومنحوها رؤىً دلالية مفتوحة. ((لقد أدرك الفكر النقدي أنّ ثمة نمطاً شعرياً جديداً، يرفض تقليد النموذج الشعرؤي للمبدعين الأوائل، ويخرج عن بنائه اللغوي، من خلال الاجتهاد في خلق

علاقات مجازية جديدة بين الألفاظ، تنتج لغة شعرية غير مألوفة ...))[١٥] انّها لغة حيرّت النقاد بين مؤيد لها ومعارض يرفض اي تجديد يتجاوز النمط الشعري القديم المألوف.

((إنّ التحدي الكبير الذي أنتجه شعر المحدثين للناقد القديم، يتمحور في انفلات لغة المجاز التأويلية من السياقات الدلالية المألوفة، واتساع آفاقها الاحتمالية ... وصياغة تصورات جديدة تتجاوز أنماط التقليد المتداولة))[١٦] وبهذا يكون شعر المحدثين متهماً بالتجاوز على اللغة وإفساد المعنى المتواضع عليه، مما دفع ابن الاعرابي ليقول عنه: ((إذا كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل))[١٧] وكذلك وصفوا شعر المحدثين بقولهم ((ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبح فهو من عندهم))[١٨] أي أنّهم عمدوا الى التقليل من أهمية الابداع الشعري ومحاولة تعطيله، متناسين أنّ لغة الابداع لا تخضع لمعيار ثابت ولا تقبل التقعيد.

ان هذا الانحياز الذي حصل فعلاً للشعر القديم ((أضرّ بالإبداع الذي يدعو إلى تنمية الطاقات الفردية، وشجع التقليد الذي حثّ على الانسجام مع التفكير الجمعي، إذ أثر ذلك سلباً على منظومة الثقافة العربية)).[١٩]

كقول ابن رشيق: ((كمثل رجلين: ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الثاني فنقشه وزينه، فالكلفة ظاهرة على هذا وإنْ حَسُن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإنْ خشن))[٢٠] فكل نص يمتلك خصوصية بنائية وابداعية تسهم بشكل كبير في انتاج مقوماته الأدائية.

الشفاهية والكتابية وعلاقتها بإختيار الشاهد:

شفاهية القول:

إنّ الثقافة السائدة في العصر الجاهلي هي شفاهية السماع، فالأدب العربي من فترة الجاهلية حتى مطلع العصر الاسلامي الأول، كان في محصلته العامة يتشكل من الفنون الأدبية القائمة أساساً على المشافهة والارتجال، كالشعر والخطابة والوصية والحكم والأمثال، وليس على الكتابة والتدوين.[٢١] الى أنْ جاء عصر التدوين وقد أشار الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) إلى أنّ بعض الشعراء من ((كان يدع القصيدة تمكث حولاً كريتاً وزمناً طويلاً، يردد فيها نظرهُ ويقلّب فيها رأيه، إتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسهِ، فيجعل عقله ذماماً على رأيهِ، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوّلهُ الله من نعمتهِ، وكانوا يسمّون تلك القصائد، (الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات) ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً ..))[٢٢] ومرحلة الحوليات مرحلة ناضجة فنياً ومتقدمة زمنياً رغم الثقافة الشفوية السائدة. ولعلنا ندرك تماماً أنّ نبوغ الشاعر في قبيلته هو عنوان رقيها وفي شعره حماية لأغراضها ودفاعاً عن أنسابها وأحسابها، وتخليداً لمآثرها وذكرها بين القبائل وقد كان ((الكلام كله منثوراً، فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها وطيب أعرافها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسُمحائها الأجواد، لتهز أنفسها الى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تمَ لهم وزنه سمّوه شعراً، لأنهم شعروا به، أي فطنوا))[٢٣]. اذن الدافع النفسي هو هو الذي دفع العرب نحوقول الشعر وإنشاده، وهو دليل على أنّ نشأة الشعر شفاهية، فهو نشأ مسموعاً لا مقروءاً، غناءً لا كتابة وإلى هذا أشار (أدونيس): ((استخدم عبارة الشفوية لأشير من ناحية الى أن الأصل الشعري العربي في الجاهلية نشأ شفوياً ضمن ثقافة صوتية سماعية، وإلى أنّه من جهة ثانية لم يصل الينا محفوظاً في كتاب جاهلي، بل وصل مدوناً في الذاكرة عبر الرواية)).[٢٤]

وتتلخص تجليات النزعة الشفاهية في: السهولة والعفوية والتكرار والارتجال في القول مع فهم جزئي للحياة، وهي سمات تقابل المكابدة والمعاناة والتأويل، وهذا يعني أنّ النزعة الشفاهية هي بساطة البدوي وهي مرتبطة بقوة، بالطبع الذي لا يتخطى السماع واللّسان. ولذلك هي تمثل مرحلة أولى في تثبيت الأحاسيس الفطرية للشاعر في تفاعله مع النظم، فهي لا تتوغل في أعماق الإبداع، بل هي مجرد قوالب له.(٢٥) وما دامت العلاقة قائمة بين الشفاهية والسماع، أصبح الشاعر مطالباً بقول ما يتوافق مع ما في نفس السامع (المتلقي) الذي يمثل انعكاساً للذوق الشائع العام.

ومن هنا تظهر أهمية المتلقي في الثقافة الشفاهية فهو يلعب دور الناقد الذي يخضع للشروط الفطرية التي ميزت الشاعر من سليقة وطبع وعفوية، لذا كان النقد الجاهلي غير مؤسس على قواعد مكتوبة أو مقاييس معروفة، وإنّما كان نقداً تأثرياً قائماً على الاحساس مع غياب المنهج والتعليل. إذن يمكننا القول أنّ الشفاهية مرحلة مؤسسة لمقاربة الشعر من حيث هو كلام جميل مؤثر.(٢٦) ولما كان مصطلح الشاهد يُحيل على دلالات العلم والإعلام والحضور، أصبح الناقد اللغوي يتشبث برواية الشواهد الشعرية لشعراء مرحلة الثقافة الشفاهية. فما دفع الكثير من الشعراء المحدثين الى محاكاة انموذج الشاعر الجاهلي على الرغم من احتضان الحضارة الجديدة لهم.

إنّ الآداب القديمة في مجملها شفاهية مسموعة لا تدوينية مقروءة وهذا ما نجده لدى مَنْ برهنوا على أنّ الثقافات الخالصة يمكن أنْ تولد أشكالاً فنية للقول فيها حذق ومهارة.(٢٧)

ومن هنا نشأ الشعر الجاهلي في أحضان الثقافة الشفاهية، وغياب الكتابة، والحفظ عبر التكرار والتدوين في الذاكرة، هذه الآليات شكلت خصائص القصيدة في أطوارها الأولى، وحاول اللغويون والنحاة المحافظة عليها في العصور اللاحقة، إلّا أنّ رياح التغيير هبت في العصر العباسي.(٢٨)

إنّ علاقة الشعر العربي بالإنشاد جعله مسموعاً أفضل منه مقروءاً، وأتخذ الإنشاد صبغة جماعية، فكان الإنشاد وسيلة القصيدة العربية للانتشار، وهو يعني حضور المتلقي عن طريق السماع، الذي يؤدي إلى الإطراب وهز نفوس المتلقين ((والحق أنّه كان لموهبة الإنشاد أهمية قصوى في امتلاك السمع أي في الجذب والتأثير))(٢٩). لقد شاع في الثقافة الشفاهية العربية أنّ خير الكلام ما قلّ ودلّ ((وأحسن الكلام ما كان قليلهُ يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه))(٣٠) وعلاوة على ذلك وجود الإيجاز مع توفر الوضوح والابتعاد عن اللبس والغموض، فقد قال الامام (علي) (ع): ((ما رأيت بليغاً قط إلّا وله في القول ايجاز، وفي المعاني اطالة)).(٣١)

((وقالت بنت الحطيئة لأبيها: ما بال قِصارك أكثر من طوالك ؟ فقال: لأنها في الآذان أولج وبالأفواهِ أعلق .... وقيل لبعض المحدثين: ما لك لا تزيدُ على أربعة واثنين ؟ قال: هُنّ بالقلوب أوقعن والى الحفظ أسرع، وبالألسن أعلق وللمعاني أجمع وصاحبها أبلغ وأوجَز))(٣٢) وذكر البحتري استحسانه للكلام الموجز قوله:

والشعرُ لمحٌ تكفي إشارته وليس بالهذر طُولت خطبه

قال القاضي الجرجاني: ((الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدُّربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابهِ، فمن أجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرِّز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان))(٣٣)

وقال في باب القديم والمحدث: ((ولستُ أفضّل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم، والأعرابي والمولّد، إلا أنني أرى حاجة المُحدِث الى الرواية أمس، وأجده الى كثرة الحفظ أفقر، فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أنّ المطبوع الذكيّ لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلّا رواية، ولا طريق للرواية إلّا السمع وملاك الرواية الحفظ)).(٣٤)

وقد عبّر ابن رشيق عن الاكتفاء بالبيت الواحد بقوله: ((ومن النّاس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض، وأنا أستحسن أنْ يكون كلّ بيتٍ قائماً بنفسه لا يحتاج الى ما قبله، ولا الى ما بعده، وما سوى ذلك فهوعندي تقصير)).(٣٥)

والاعتماد على وحدة البيت من تداعيات الثقافة الشفاهية، لذا نجد زخماً من الأحكام الجزئية في كتب النقد القديم التي تتحدث عن أشعر بيت، وأجمل بيت، واهجى بيت وهذا كله كان ((وليد البيئة التي تعتمد على الحفظ وعلى الاستشهاد والتمثل بالأبيات المفردة السائرة ... وسيكون النظر الى (البيت المفرد السائر) أو الأبيات المفردة السائرة، محكاً للجودة ما دام الحفظ لا يسمح بتصور القصيدة جميعاً))(٣٦)

وهكذا تقترن الثقافة الشفاهية بفكرة السماع والتكرار الذي يساعد على ترسيخ المحفوظ في الذاكرة وهذه الآليات تجسد الانموذج الأصلي للشاعر المطبوع الذي تقترن أوصافه ((بالبديهة والارتجال من ناحية، والغزارة والاقتدار من ناحية ثانية والسهولة والوضوح من ناحية ثالثة، والاستواء والسلاسة من ناحية رابعة، فالشاعر المطبوع .. شاعر منطق فصِحٌ، مفوه، غزير، لسن، فحل، يضع لسانه حيث يشاء، يلعب بالشعر لعباً، صاحب بديهة، قادر على الكلام، يتدفق تلقياً بالشعر كما يتدفق النبع الصافي بالماء الزلال، ميسر للشعر بفطرته التي فُطر عليها، متيسراً عليه بغزارته التي تجود بحملها في يسرٍ وإسماح))(٣٧) وسرعان ما تتحول هذه الصفات الى مقياس يقاس به فحولة الشعراء للمفاضلة بينهم لدى النقاد واللغويين، إذ عُدّ إبداع الشاعر المطبوع متناً مرجعياً لدى النحاة واللغويين، منه تؤخذ الشواهد الشعرية التي يعتد بها اللغوي والنحوي والبلاغي.

ولابدّ من الإشارة الى أنّه لايوجد منهج معين ثابت في (الاستشهاد بالشواهد والقياس عليها) سار عليه النحاة ويظهر أنّ السبب يعود إلى أنّهم اعتمدوا في أصولهم وأقيستهم على السماع، وقد سمعوا من قبائل عدة تختلف فيما بينها في أساليب النطق، فجاءَ ما سمعوه مختلفاً.

فالشواهد التي يرتضيها فريق من النحاة ويضع القاعدة بموجبها لا يقرها البعض منهم فيعترض عليها، وهذا آتٍ من عدم وجود مفهوم صحيح للسماع له إعتبار عند النحويين ولهذا اختلفوا في تطبيقه.(٣٨)

((ويرجع اختلافهم أيضاً الى مقدار استقراء كل عالم لكلام العرب وسماعه فقد يتوفر لدى العالم من الاستقراء ما يكفي لتركيب القاعدة، فيُجيز القياس، ولا يبلغ الآخر مقدار ما يؤخذ منه حكم كلّي فيقتصر الأمر على السماع))(٣٩)

إنّ الرواية كانت سبباً من أسباب حفظ الشعر واشتهاره، ويذكر الأصمعي عن كيفية بلوغ الشاعر مرحلة الفحولة في شعره ((لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي اشعار العرب، ويسمع الأخبار ...))(٤٠) فهو قدم الرواية على المقومات الأخرى لأهميتها في تطوير قدرات الشاعر الفنية. وهكذا تعد الشفاهية مرحلة أولى في تثبيت أحاسيس الشاعر الفطرية بالنظم، فهي لا تتوغل في أعماق الأبداع بل مجرد قوالب له.

الكتابية والتدوين

إذا كانت الشفاهية قد ارتبطت بمجتمع قبلي، متنقل، تحكمه علاقات وتقاليد القبيلة، فإنّ الكتابية شاعت مع تغير الأوضاع وتطور الحضارة وتوسع الحس العلمي، وبما أنّ الشعر هيمن على حياة العربي ((فخير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته يستميل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم))[٤١] وقبل أنْ يصبح الشعر مدونة تؤخذ منها الشواهد، كان على العلماء جمعهُ وروايته وتدوينه، ويتعلق الأمر بالموروث الشعري الجاهلي، بسبب ما أصطلح على تسميته بعصر الاحتجاج الذي يمتد من العصر الجاهلي حتى منتصف القرن الثاني بالنسبة الى عرب الأمصار، وإلى أواخر القرن الرابع للهجرة بالنسبة الى عرب البوادي.[٤٢]

وأجمع اللغويين على عدم الاحتجاج بشعر المولدين أو المحدثين وهم الذين عاشوا بعد سنة (١٥٠هـ) وهي السنة التي توفي فيها (ابن هرمة) وشدَّد النحاة على أنْ يكون آخر الحجج. غير أن بعض النحاة قد ذهب الى الاستشهاد بكلام مَنْ يوثق بهم من المحدثين.[٤٣]

وقد أحدث هذا خلافاً بين القدماء والمحدثين، بين متعصب لهؤلاء ومتعصب لأولئك. وفي طليعة من تعصب للقديم: ابو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد وخلف الأحمر وأبو عبيدة والأصمعي وابن الاعرابي وهذا يعود لإتصالهم بالقديم زمناً طويلاً، أو لأنه عاش في بيئتهِ أو بيئة رواته، وهؤلاء بلغوا في تعصبهم للقديم درجة كبيرة حتى باتوا ينظرون له بإجلال وتقديس، كما هو الحال عند أبي عمرو بن العلاء حين قال: ((لو أدركَ الأخطلُ يوماً واحداً من الجاهلية ما قدَّمتُ عليه أحدا))[٤٤] ولعلّ موقف خلف الأحمر مع ابن مناذر أصدَق دليل على مدى تعصب بعض العلماء للقديم، وذلك حين طلب منه ابن مناذر أنْ يقيس شعره بشعر القدماء. وطلب منه ابن مناذر: ((اتق الله وأحكم بين شعري وشعر عدي بن زيد، ولا تقل: ذاك جاهلي وهذا عباسي، وذاك قديم وهذا محدث، فتحكم بين العصرين ولكن أحكم بين الشعرين ودَعْ العصبية))[٤٥] هذا المعيار الزماني / المكاني يُظهر الشاعر المحدث في صورة قاتمة لأنّه غير منصف، فالأصمعي لا يعتّد بشعر جرير والفرزدق والأخطل لأنهم اسلاميون. ويذكر أيضاً: ((الكميت بن يزيد ليس بحجة لأنّه مولّد وكذلك الطرماح، قال وذو الرِّمة حجة لأنّه يروي ولكن ليس يشبه شعره شعرب العرب))[٤٦] ويتضح تعسفهم من خلال موقف الناقد اللغوي ابن الاعرابي حين قال: ((إنّما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان، يُشمُّ يوماً ويذوي فيرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلّما حركته ازداد طيباً))[٤٧] ويروى عنه أيضاً، أنّه أنشدَ أرجوزة أبي تمامالتي أولها:

وعاذل عَذلتَه في عذلهِ فظنّ أنّي جاهلٌ من جَهْلِه

على أنّها لبعض العرب فإستحسنها، وأمر بعض أصحابه بكتابتها، ولمّا عَلِمَ أنّها لأبي تمام، قال: خَرّق، خرّق.[٤٨] كما يروي الأصمَعي عن أبي عمرو بن العلاء ((جلستُ اليه عشر حجج فما سمعتُه يحتج ببيت اسلامي))[٤٩]، ومهما يكن من شيء ((فأنّ عصر الاحتجاج ينتهي في رأي بعضهم بإبن هرمة (ت ١٥٠هـ) وعند بعضهم الآخر ببشار (ت ١٦٨هـ)، وكان الأصمعي يقول عنهما أنهما ساقة الشعر .. أي آخرهم))[٥٠] ولما كانت السلامة اللغوية والفصاحة مرتبطتين بالشعر الجاهلي – وشعر البادية على نحو خاص – فقد ضيق هؤلاء العلماء مجال الاستشهاد والاحتجاج على الشعر الجاهلي

والاسلامي الذي سلمت لغته من اللحن والفساد، وعلى وفق ذلك فأنّ اللفظ وما يتعلق به أصبح مقصوراً على القدماء، أمّا المعاني فتشمل القديم والمحدث على السواء. هذا الانفلات من الحاجز الزماني / المكاني هو ما يميز الشاهد في الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية، عن الشاهد في الدراسات اللغوية فـ ((المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ))[٥١] كما رأى ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ).

إنّ تطور الحضارة وتوسع الحس العلمي دفع الناس بقوة نحو تدوين الشعر المولّد والمحدث، فقد كان الشعراء العباسيون مثقفين يدونون شعرهم بأنفسهم، وبعضهم كان ينقح قصائده ويطيل النظر فيها قبل إخراجها الى الناس كأبي نواس ومسلم بن الوليد والعتابي والبحتري. كما أنَّ تطور المقاييس النقدية والذوق الأدبي وتزايد اهتمام الناس بشعر المولدين والمحدثين لأنّه أقرب اليهم، وألصق بتجاربهم النفسية وخبراتهم الفكرية والاجتماعية وهو أحسن تصويراً لمعالم بيئتهم وحاضرتهم العباسية.[٥٢]

وقد جاء في كتاب الموازنة ما يدلّ على أهمية ثقافة الشاعر فقال صاحب أبي تمام: ((فقد أقررتم لأبي تمام بالعلم والشعر والرواية، ولا محالة أنّ العلم في شعره أظهر منه في شعر البحتري، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم))[٥٣]

إنّ ثقافة عصر أبي تمام واضحة جلية في شعره، فقد غذّى حصيلته الفكرية من مناهل عدّة، القرآن الكريم بصورة خاصة، وأدب العرب وتاريخهم وأمثالهم وعقائدهم اضافة إلى الفلسفة وعلم المنطق، ليضم ذلك كلّه إلى معانيه وصوره التي ينزع في معظمها الى الإغراب في اللفظ وغموض المعاني ودقتها. لذا فضلّه أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومَنْ يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام.[٥٤]

وكان لابدَّ أنْ تشهد الثقافة الكتابية في ظلِّ هذا التحضر تطوراً في معطياتها، فلم يعد الوضوح معياراً للجمال والتأثير بل أصبحَ النص المتعدد المعاني، والمحتمل للتأويل هو مقياس الشعرية.

((فالنزعة الكتابية هي حالة وعي مغاير، وبنية ابداع مختلف وطريقة مختلفة في التلقي، أنّها وليدة وعي مدني، ينطوي على التعدد والتباين))[٥٥] أنّها مرحلة الرقي العقلي والذوقي، وتحوّل الوعي الى وعي ثلاثي الأبعاد: وعي بالحاضر، ووعي بالذات التي تعي هذا الحاضر، ووعي بالكتابة وهي الأداة التي تتوسل بها الذات لتكتشف هذا الحاضر.[٥٦]

إنّ تغير طابع العصر من الشفاهية الى الكتابية، ومن ثقافة البديهة والارتجال الى ثقافة الروية والتأمل، تطلّب شروطاً تمثلت في الكتابة دون احتذاء مسبق ويتضمن هذا المبدأ ضرورة نقض العادة باستمرار، لكي يظل الشعر، باستمرار غريباً وجديداً، ثم النظر الى النص الشعري بمعزل عن السياق الزمني، واشتراط الثقافة العميقة لكل من الشاعر والناقد، فكتابة الشعر وقراءته تستلزمان معرفة وخبرة ً ومراساً مع انتاج نص متعدد التأويلات، نص ((تذهب النفس فيه كلّ مذهب)) كما عبّر عنه الرّماني.[٥٧] فلم تعد دراسة الشعر تمارس بطريقة اعتباطية – من دون تعليل – بل أصبح الشاهد الشعري يبرَّر ويعلّل وفق وجهة نظر مؤسسة.

ويمكن أنْ نستدل على فرق الشفاهي عن الكتابي بما يأتي: [٥٨]

١-الشفاهية تتضمن نظرة أحادية ومعنىً أحادي، بينما الكتابية تنطوي على وعي متعدد ومتباين (التأويل وتعدد المعنى).

٢-البساطة والوضوح هو ما يميز الثقافة الشفاهية، أمّا الكتابية ففيها تعقيد وغموض.

٣-(الطبع) من صفات الشفاهية، يقابله (الصنعة) في الثقافة الكتابية.

٤-في الشفاهية بديهة وإرتجال أما في الكتابية فعقلٌ متأن.

٥-الفكر الحواري في الشفاهية هو (الأنا الجماعي) بينما (الأنا الفردي) أو الفكر الفردي هو ما يميز الكتابية.

لقد سجل الشاعر العباسي خروجاً على الشفوية الشعرية الجاهلية، فأصبحت لغة الحاضرة بديلاً للغة البادية، كما فعل بشار بن برد (ت ١٦٨هـ) وأوصل ابو نواس (ت ١٩٥هـ) هذه اللغة الى أوج فني لا سابق له، فشهد شعره تنوعاً وشمولاً لحداثة الشعرية الكتابية، فهو مقاربة معرفية للأشياء والعالم والانسان بحساسية جديدة وجمالية جديدة.

أما أبو تمّام (ت ٢٣١هـ) فينطلق في تجربته من رؤية ترى أنّ الشعر نوع من خلق العالم باللغة، فيقيم علاقات غير معهودة بين الكلمة والكلمة.(٥٩)

وهذا ما فطن إليه النقاد المحدثون فقد وجدوا تفاوتاً في المعاني بين الشعر المحدث والشعر القديم، فآثروا الاعتدال والإنصاف في نظرتهم ومنهم الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) والمبرّد (ت ٢٨٥هـ) وابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، فقد كانت معاني القدماء فطرية سهلة، سرعان ما أدخل عليها المحدثون من ثمرات أذهانهم وعلمهم وثقافتهم، الكثير، ومن ثم لم تكن بين القديم والجديد سوى فروق فقط، لا استحالة، ولا خلق جديد، إلّا ما كان من مغالاة في بعض المعاني، والافراط في بعض الاستعارات، والزخرفة أحياناً في الصياغة، وليس هذا من سُنن العرب القدامى فقد كانوا يقتصدون ويتقاربون ولا يزخرفون فالصورة المثالية للشعر عند القدماء أنّه كلام يجري على السليقة والفطرة ومعان توحي إليهم بها حياتهم، أعم خصائصها السهولة والوضوح، وعبارات قوية رصينة جزلة، لا يقصد بها إلّا ابراز المعنى وتحديده، أما المثل الأعلى للشعر عند الشعراء الجدد المحدثين فكان شعراً جميلاً، فهم فهموا من الجمال غير ما فهمه القدماء فالجمال عند الشاعر القديم هو الفطرة، والقوة في الإبانة والوضوح، وإرسال الكلام ارسالاً كما يوحى به الطبع، أما المحدثون فقد وجدوا ضالتهم في الصياغة الشعرية، يجددون فيها ويرسمون عليها ابداعهم.(٦٠)

وما عدا ذلك، فالشعر قد إحتفظ بأصوله فالجوهر واحد، والأغراض محتذاة، وإنْ دخلت بعضها طوابع عقلية جديدة دقيقة، بسبب ما طرأ على العصر من تغيير كان له أبعد الأثر في الشعر والشعراء، وهذا ما تجلى عند الشعراء الذين التحموا بالمعتزلة ومباحث المتكلمين، على نحو ما نجد عند بشار وأبي نواس والعتابي وابي تمام، فكانت عندهم سيول من الألفاظ والأفكار والاستدلالات العقلية والمعاني المبتكرة والصور البديعة، وكل هذا دليل على دقة عقل وقدرة تحليل، وافتتان في التوليد، وتقليب المعاني القديمة بطرق جديدة، فأشعار المولدين فيها ((حلاوة اللفظ، وقرب المأخذ، واشارات الملح، ووجوه البديع الذي مثله في شعر المتقدمين قليل، وإنْ كانوا هم مَنْ فتحوا بابه، وفتقوا جلبابه ...))(٦١).

فكانت حركة التجديد التي قام بها المحدثون بعيدة الأثر في الشعر والنقد، فمن ذلك العهد صار الشعر مذهبين متميزين، وصار الشعراء طائفتين: طائفة تحتذي القدماء والصياغة القديمة ومنهم مروان بن أبي حفصة وأشجع السَّلمي وعلي بن الجهم ودعبل الخزاعي وابن الرومي والبحتري، وطائفة مالت الى التجديد كبشار بن برد وابراهيم بن هرمة وأبي نواس ومسلم بن الوليد وابي تمام.(٦٢)

Abstract

Orality and writing and their impact on the selection of poetic witness

By Mona Issa Hashem

And Nasira Ahmed Al-Shamry

The verse witness is one of the most regarded ancient art classifications The authors used it for different purposes, that they tried using it to explain the poet`s news, or support their criticism opinions. In addition, it took a huge importance because it stay in memory also kept easily.

This study aims to know the standards that made the ancient critic examine his verse witness. Then , he concentrates on the transitionally period between (shafafiyatal-kawl) thatconnected with tribalism society and (Al- kitabiya) that known with circumstances changing and civilization development .

هوامش البحث

١- أبو نصر الفارابي: الفيلسوف والفقيه ولد في كازاخستان عام٢٥٧هـ، أهم ما يميزه نظريته في الوجود المسماة (الصدور والفيض) عرف باسم المعلم الذكي بعد أرسطو، توفي عام ٣٩٨هـ.

٢- المزهر/ ٢١١-٢١٢.

٣- المثال والشاهد / ٢٣ ، المزهر: ٢١١/١

٤- الأغاني: ٥١٢/٤

٥- خزانة الأدب: ٥/١

٦- ينظر: الاحتجاج بالشعر: ٥٧

٧- الشعر والشعراء: ١ / ٩٩

٨- من القائلين بهذا الرأي الزمخشري والرضي

٩- الشعر والشعراء: ١ / ٦٤

١٠- م . ن

١١- الاستشهاد والاحتجاج باللغة: ٣١

١٢- ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٩٧ – ٤١٧

١٣- م . ن: ٤١٧

١٤- الاستشهاد والاحتجاج باللغة: ٣١

١٥- مفهوم الإبداع الشعري في التراث النقدي: ١١٠

١٦- م . ن : ١١١

١٧- الموشح: ٤٦٥

١٨- العمدة: ١ / ٧٩

١٩- مفهوم الإبداع الشعري: ١٢٤

٢٠- العمدة: ١ / ٧٩

٢١- ينظر: الإيجاز في الموروث البلاغي: ٢٤

٢٢- البيان والتبيين: ٩/٢

٢٣- العمدة: ١٨/١
٢٤- الشعرية العربية: ٥
٢٥- ينظر: الشواهد الشعرية في كتاب المنزع البديع: ١٤
٢٦- ينظر: م . ن / ١٥
٢٧- ينظر: الشواهد الشعرية في كتاب الموازنة: ١٩
٢٨- ينظر: الشواهد الشعرية في كتاب الموازنة: ١٩
٢٩- الشعرية العربية: ٧
٣٠- البيان والتبيين: ٨٣/١
٣١- الصناعتين: ١٥٧
٣٢- م . ن
٣٣- الوساطة: ٢٣
٣٤- م . ن
٣٥- العمدة: ٤١٥/١
٣٦- تاريخ النقد الأدبي، إحسان عباس: ٣٤
٣٧- مفهوم الشعر: ١٦٥
٣٨- ينظر: الشواهد والاستشهاد في النحو: ١٤٤
٣٩- القياس في اللغة العربية: ٤٨ ، محمد الخضر حسين، المطبعة السلفية، القاهرة، ط١، ١٩٥٣
٤٠- العمدة: ١٦٦/١
٤١- البيان والتبيين: ١٠١/٢
٤٢- ينظر: المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية: ٧، ٨
٤٣- في النحو العربي، نقد وتيسير، د. نعمة رحيم العزاوي: ١٥، وزارة التربية، معهد التدريب والتطوير التربوي، ١٩٨٥
٤٤- الأغاني: ٢٨٥/٨
٤٥- الأغاني: ١٧ / ١٢
٤٦- فحولة الشعراء: ٢٠
٤٧- الموشح: ٢٤٦
٤٨- ينظر: سر الفصاحة: ٣٦٢
٤٩- العمدة: ٧٣
٥٠- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: ٧٥
٥١- العمدة: ٧٣
٥٢- ينظر: دواوين الشعر العباسي: ١١٤
٥٣- الموازنة: ٢٥/١
٥٤- ينظر: الموازنة ١٠/١
٥٥- الشواهد الشعرية في كتاب المنزع البديع: ١٦
٥٦- ينظر: م . ن

٥٧- ينظر: الشعرية العربية: ٥٣، ٥٤

٥٨- ينظر: الشواهد الشعرية في كتاب المنزع البديع: ١٨

٥٩- ينظر: الشعرية العربية: ٥٢

٦٠- ينظر: البلاغة والنقد، محمد الكواز: ٢٤١

٦١- العمدة: ١ / ١٦٧

٦٢- ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد ابراهيم: ١٠٠، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٨٨، ط١.